الفصل الثانى

حضارة مصر وتاريخها العام

والتى استمد منها مبارك جذوره

- مرحلة صناعة الحضارة وتصديرها .

- مرحلة الإكتفاء الذاتى .

- مرحلة إستيراد الحضارة .

• حضارة مصر وتاريخها العام وأثر العوامل الجغرافية حتى عصرنا الحالى

إذا جاز لنا أن نتحدث عن التاريخ الحضارى لمصر حتى نفهمها بوضوح يمكن لنا تقسيمه إلى أربع مراحل وهى : - مرحلة صناعة الحضارة - مرحلة تصديرها - مرحلة الاكتفاء الذاتى - وأخيراً مرحلة إستيراد الحضارة . (١)

• مرحلة صناعة الحضارة وتصديرها (٥٠٠٠ ق.م - ٣٢٠٠ ق.م)

وتبدأ هذه المرحلة ببداية الحياة الزراعية المستقرة بالوادى (العصر الحجرى الحديث) (٢)

وفيه أخذت نظم المجتمع المصرى تستقر رويداً رويداً حتى اكتمل نضوج تلك النظم فى عهد الأسرات الفرعونية ومن مظاهرها الوحدة والتضامن والنظام فى دفع الخطر المشترك وجلب المنفعة المشتركة وقد كان عامل الضعف الأساسى فى فترتى الأقطاع الأول والثانى من عهد الفراعنة يرجع إلى التفكك وإنحلال النظام مما أدى إلى ضعف مصر وأطمع الغزاه وعندما عادت الوحدة والنظام مرة أخرى (الدولتين الوسطى والحديثة) عاد المجتمع المصرى لسيرته الأولى من القوة والازدهار .

وكان لموقع مصر الجغرافى فى هذه المرحلة مقصوراً على علاقات مصر بالعالم المجاور الذى وصلت منه الغزوات إلى مصر حيناً وخرجت إليه الحملات المصرية حيناً آخر والذى تبادل مع مصر بعض أنواع المدنية والثقافة ولكنه لم يطغ على حضارتها ولم يقطع حبل التاريخ على المجتمع المصرى إلا فى فترات محدودة .

---

(١) د .جمال حمدان . شخصية مصر ، ص ١٣٠ .

(٢) د. سليمان حزين . مرجع سابق ، ص ٤٩ : ٥٣ .

• مرحلة الإكتفاء الذاتى : -

« عندما جاء عهد الأسكندر الأكبر وظهرت العالمية (قام بحملته التاريخية من بلاد الاغريق إلى الشرق الأدنى ثم مصر ثم حدود برقة ثم عاد إلى مصر ومنها إلى الشرق الأدنى وإيران وتركستان الغربية وحدود تركستان الصينية ثم إتجه نحو الهند ثم عاد إلى الشرق الأدنى ومات هناك) كانت هذه أول حملة إحتكت فيها مناطق الحضارة المختلفة (حضارة الصين وحضارة الهند وحضارة الشرق الأدنى وحضارة مصر وبلاد الأغريق) إحتكاكاً مباشراً وتقاربت أجزاء العالم وظهرت العالمية أو بعض بوادرها ووضعت أسس الإتصال العالمى ففتحت الطرق وسعى إليها التجار والملاحون فى البر والبحر وتبادل الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن يعرف بعضها بعضاً قبل عهد الأسكندر الأكبر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة » (١) .

من هنا أصبح تاريخ مصر وحياة مجتمعها مرتبطين بعاملين هما البيئة المحلية واستغلالها موارد أرض مصر ثم الموقع الجغرافى لها وتشابك المصالح العالمية فوق أرضها من هنا يمكن تتبع الأدوار الآتية من تاريخ مصر .

(أ) بعد عهد الأسكندر :

بدأ البطالمة بتنظيم إستغلال موارد مصر الداخلية وإعداد مصر لأن تكون قاعدة صالحة للتحكم فى المواصلات العالمية ثم للتوسع التجارى والثقافى ثم فتحوا طريق التجارة خصوصاً طريق البحر

---

(١) د. سليمان حزين . المرجع سابق .

الأحمر إلى شرق أفريقيا والهند فأصبحت مصر تدريجياً حلقة الاتصال التجارى فى العالم .

وعندما ورث الرومان مُلك البطالمة إستمروا فى استغلال مصر من حيث مواردها الداخلية وموقعها الجغرافى استغلالاً غير منتظم أدى إلى تدهور سريع فى أواخر عهدهم .

(ب) الدور العربى الإسلامى : -

وفيه ظهرت نهضة جديدة بدخول عناصر جديدة بعثت نشاط الأمة وجددت حيويتها . وفى هذا العهد قامت النهضة من استغلال موارد البيئة المحلية ثم استغلال الموقع الجغرافى فتحكمت مصر فى طريق التجارة وأصبحت مفتاح الاتصال بين الشرق والغرب لا سيما فى عهد المماليك ثم أصبحت مصر (مركز الثقافة الإسلامية) فتغير مظهر الثقافة العام وغَيَّرت البلاد دينها كما غيَّرت لغتها وكثيراً من ألوان ثقافتها الأخرى .

(ج) العهـــــد التركى : -

وتغير سادة مصر ومن بيدهم شئونها فالاتراك جاءوا « غُزاة » ولم تكن لهم حضارة أو ثقافة يضيفونها إلى تراث الشرق الأدنى وإنما إستعاروا لأنفسهم ثقافة الشعوب المقهورة ولم تكن لهم فى الناحية التجارية أو الثقافية ولذلك حلَّ الاتراك محل العرب فى السيادة السياسية ولم يستطيعوا أن يحلوا محل العرب فى الوساطة التجارية وفى استغلال الموقع الجغرافى لمصر .

وقد اتفقت بداية السيادة التركية على الشرق الأدنى (أوائل القرن السادس عشر الميلادى) مع عصر الاستكشافات الكبرى وبداية استعمال طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهند وإنتهى الأمر بالتجارة أن إتخذت طريقاً آخر دون الحاجة إلى طرق الشرق الأدنى فدخلت مصر والشرق عامة فى عهد مظلم زاد فى ظلمته استغلال البيئة المحلية واستثمار ثروتها .

(د) العهـــــد الحديث : -

ويبدأ بالحملة الفرنسية ثم محمد على الكبير وهنا « كَرَّر التاريخ نفسه مرة أخرى » فجاءت الحملة الفرنسية كعامل خارجى غيَّر مجرى تاريخ مصر وأعاد إبراز قيمة الموقع الجغرافى فاتجهت الانظار من جديد نحو الشرق الأدنى وأرض مصر حتى إذا ما جاء محمد على بدأ باعادة استغلال موارد البيئة المحلية وبعث النهضة الاقتصادية فى البلاد فتحولت مصر إلى قاعدة قوية صالحة استخدمها فى التوسع نحو الجنوب والشرق والشمال فامتد سلطانه فى العالم المجاور ولكن محمد على كان بعيد النظر فلم يشأ أن يفتح على مصر طريق استغلال موقعها الجغرافى العالمى بشكل قد يغلق معه زمام التاريخ من أيدى سادة البلاد وأبنائها إلى أيد عالمية فأجَّل مشروع قناة السويس واكتفى باستغلال مصر لموارد بيئتها ولموقعها الجغرافى بالنسبة للعالم المجاور .

ولكن لم يكن تنفيذ مشروع شق القناة إلا مسألة وقت وإنتهاز للفرص بعد أن حَوَّلت غزوة نابليون أنظار العالم الأوربى نحو قلب الشرق - وفعلاً تم شق القناة وتحول النقل البحرى تدريجياً نحو مصر وزاد معه تحول أنظار

العالم نحو هذا الموقع الجغرافى الذى لم تكن مصر للأسف من القوة والتماسك بحيث تستطيع الافادة منه كما فعلت فى بعض عصورها السابقة وأصبح الموقع الجغرافى المتميز وبالا عليها .

• مرحلة استيراد الحضارة :-

وهو تاريخ مصر الحديث والمعاصر ... والذى حَدَّدَت فيه مصر نهضتها الداخلية ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تكون سيدة تاريخها لأن العالم كله قد اشترك فى تسطير ذلك التاريخ وتسابقت الدول إلى التسلط على موقعها الجغرافى فى وقت لم تكن فيه من القوة بحيث تناظر هذا العالم الذى تشابكت مصالحه فى أقصى الغرب وأقصى الشرق . بل فى وقت ألهتنا فيه مشكلاتنا الداخلية وتخبطنا فى النهضة الحديثة ومرورنا فى دور الانتقال السريع من القديم إلى الجديد .

فعملية الاحتكاك بالغرب مَرَّت فى ثلاث مراحل واضحة هى (١) : -

• المرحلة الأولى :-

مرحلة الانبهار الحضارى والانهيار النفسى

« وفيها فوجئنا بأننا أقزام أمام عمالقة وكان رد الفعل « مركب نقص » حضارياً شديداً أفقدنا كل ثقة فى تاريخنا وتراثنا وكياننا وجعلنا نتهافت على النقل والتقليد بلا تمييز فكانت صيحات التفرنخ ومحاولات تحويل مصر إلى « قطعة من أوربا » وكان ذلك فى الثلاثينيات » .

---

(١) د جمال حمدان . شخصية مصر - مهرجان القراءة للجميع ، ص ١٣٦ : ١٣٨ .

• **المرحلة الثانية :-**

زوال الانبهار وعودة بعض الثقة فى أنفسنا

وكان ذلك رد فعل عكسى بعد أن عرفنا ومارسنا دخائل الحضارة الحديثة وأدركنا فضلنا غير المباشر فى أصول هذه الحضارة ولكن البعض تطرف فطالب بالرجوع إلى الماضى واشتدت الحركات السلفية وقد كانت هذه مرحلة الانتفاض السياسى أيضاً وأدى نجاحها بالبعض إلى تطرف جديد وصل إلى درجة الغفلة أحياناً فقد إنقلب مركب النقص الحضارى إلى مُرَكَّب « عَظَمَة » هو فى الحقيقة مُرَكَّب نقص مقلوب .

• **المرحلة الثالثة :-**

مرحلة الاعتدال وهى التى نعيشها اليوم .

وقد بدأت بسرعة وأدركنا أننا لابد أن نستعير ولكن إستعارة رشيدة .

استعارة هضم وتمثيل لا إغراق ونوبان فقد أدركنا أننا وإن كنا يجب أن نعتز بما قدمناه للحضارة والتاريخ فلا يجب أن نعتمد على ذلك أكثر مما ينبغى

فهذا الغَرب يدين بطريق غير مباشر بأصول حضارته إلى ما قدمناه فى القديم سواء عن طريق ما استعارته اليونان من مصر القديمة خاصة أو ما إستعارته أوروبا الوسيطة من عربَ الإسلام عامة

« فإذا كان الغَرب يُعِّد نفسه اليوم أستاذنا حضارياً فقد كان تلميذنا بالأمس فإن هى إلاَّ بضاعتنا رُدَّت إلينا وما هو إلاَّ دَيْن تأجل سداده قروناً

فنحن مثلاً نختلف عن بلد كاليابان أخذ بالحضارة الأوربية أخذاً شديداً دون عطاء سابق أما نحن فعلاقتنا الحضارية علاقة أخذ سبقه عطاء » (١).

وبعد أن قمنا بالسياحة فى تاريخ مصرنا الحبيبة بصورة مجملة وتصفحنا أوراق حضارتها فى نشأتها وازدهارها ثم انكسارها فنهضتها مرة أخرى فهذا هو تاريخها مُجْمَلة موقع متميز ذكره الله فى قرآنه عدة مرات وشعب عريق دعا له رُسُلُه وأنبياؤه وأوصوا به خيراً .

وخلاصة إزدهاره وانكساره يمكن إجمالها أيضاً فى الآتى..

فى حالة تمَسُّك الشعب بقيمه الدينية أياً كانت الديانة وتماسك أفراده تحت قيادة رشيدة وقويمه كان الإزدهار والعكس فى حالة الإنكسار...

فهيا بنا نتعرف على المشروع القومى المصرى ومراحله المختلفة منذ بدايته عام ١٨٠٥م وحتى الآن ودور الحركة الوطنية المصرية ورموزها الذين أسهموا فى بناء هذا المشروع كلٌ منهم بالوسائل المتاحة له فى عصره وأخلصوا وجاهدوا على قدر ما سمحت الظروف والإمكانات المحيطة بهم .

---

(١) د. جمال حمدان . مرجع سابق .